بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 21 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:16\11\2021 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

أنهينا في البحث السابق ما يرتبط بالآية العاشرة وهي قوله: ﴿خَلَقَ السَّماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الأرض رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ﴾[1] لكن بقي أن نشير إلى مطلب وبعد ذلك ننطلق إلى الآية التي بعدها، ورد في تفسير القمي وكذلك في تفسير العياشي هذه الرواية حَدَّثَنِي أَبِي [علي بن إبراهيم] عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا ع قَالَ قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ﴾ فَقَالَ هِيَ: مَحْبُوكَةٌ[2] إِلَى الْأَرْضِ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. [يعني هذه السماء التي نراها فوقنا محبوكة إلى الأرض، أي: متصلة ومشتبكة وملتصقة بالأرض] فَقُلْتُ: [الراوي هنا جاء على ذهنه إشكال] كَيْفَ تَكُونُ مَحْبُوكَةً إِلَى الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿رَفَعَ السَّماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها فَقُلْتُ بَلَى فَقَالَ ثُمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا.[3] [4]

في البحث السابق أشرت إلى وجود احتمالين في قوله تبارك وتعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾:

---

[1] لقمان 10

[2] مَعْنَى الْحُبُكِ لُغَةً شَدُّ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَ مِنْهُ« الْحُبْكَةُ» وَ هِيَ مَا يُشَدُّ بِهِ الْوَسَطُ، وَ« الْحِبَاكُ» وَ هِيَ الْحَظِيرَةُ الَّتِي تَشُدُّ بِقَصَبَاتٍ، فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ كَمَا بَيَّنَهُ الْإِمَامُ ع أَنَّ الْعَرْشَ وَ مَا بَعْدَهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَرْضِنَا هَذِهِ كُلُّهُ مَشْدُودٌ بِالْقُوَّةِ الْجَاذِبَةِ، بِحَيْثُ لَوْلَاهَا لَتَصَادَمَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرَضُونَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ وَ هَذِهِ الْقُوَّةُ كَالْأُسْطُوَانَةِ لَكِنَّنَا لَا نَرَاهَا كَمَا قَالَ عَزَّ اسْمُهُ: وَ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها.

وَ قَبْلَ مُدَّةٍ، كَانَ مِنْ مَذْهَبِ الْفَلَاسِفَةِ خِلْوُ الْجَوِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وُجُودِيٍّ وَ عَبَّرُوهُ بِـ« الْخَلَاءِ» وَ لَكِنْ لَمَّا حَانَ عَصْرُ الصَّارُوخِ أَبْطَلَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ عَمَلِيّاً، لِأَنَّ صُعُودَ الصَّارُوخِ لَا يُمْكِنُ بِدُونِ شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِي الْجَوِّ إِذْ هُوَ يَرْمِي مَادَّةً نَارِيَّةً إِلَى تَحْتِهِ وَ مِنْ أَجْلِ اصْطِكَاكِهَا بِالْفَضَاءِ تُوجَدُ اهْتِزَازَاتٌ فِي الصَّارُوخِ فَتَتَصَاعَدُ إِلَى فَوْقُ وَ هَذَا دَلِيلٌ عَمَلِيٌّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ اتِّصَالاتٍ مَادِّيَّةً مِنْ كُلِّ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَ لَا وُجُودَ لِلْخَلَاءِ الْمَحْضِ كَمَا فَرَضُوهُ سَابِقاً فَهُوَ مِمَّا نَطَقَ بِهِ الْإِمَامُ الرِّضَا ع قَبْلَ الِاسْتِكْشَافَاتِ الْجَدِيدَةِ بِأَلْفِ عَامٍ أَوْ أَزْيَدَ بِقَوْلِهِ« فَهِيَ مَحْبُوكَةٌ إِلَى الْأَرْضِ» ثُمَّ لِمَزِيدِ إِيضَاحِ هَذَا الْمَعْنَى شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَمَا فِي الْخَبَرِ. ج. ز

[3] تكملة الرواية: قُلْتُ كَيْفَ ذَلِكَ جَعَلَنِيَ اللَّهُ فِدَاكَ- فَبَسَطَ كَفَّهُ الْيُسْرَى ثُمَّ وَضَعَ الْيُمْنَى عَلَيْهَا فَقَالَ: هَذِهِ أَرْضُ الدُّنْيَا وَ السَّمَاءُ الدُّنْيَا عَلَيْهَا فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ الثَّانِيَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا- وَ السَّمَاءُ الثَّانِيَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ الثَّالِثَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَ السَّمَاءُ الثَّالِثَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ الرَّابِعَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ- وَ السَّمَاءُ الرَّابِعَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ الْخَامِسَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ- وَ السَّمَاءُ الْخَامِسَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ السَّادِسَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ- وَ السَّمَاءُ السَّادِسَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ الْأَرْضُ السَّابِعَةُ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ- وَ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ فَوْقَهَا قُبَّةٌ- وَ عَرْشُ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ اللَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ- وَ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ».

فَأَمَّا صَاحِبُ الْأَمْرِ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ص وَ الْوَصِيُّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ص قَائِمٌ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ- فَإِنَّمَا يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ- مِنْ بَيْنِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرَضِينَ- قُلْتُ: فَمَا تَحْتَنَا إِلَّا أَرْضٌ وَاحِدَةٌ- فَقَالَ: مَا تَحْتَنَا إِلَّا أَرْضٌ وَاحِدَةٌ وَ إِنَّ السِّتَّ لَهُنَّ فَوْقَنَا.

[4] تفسير القمي، ج2، ص: 328

الاحتمال الأول: أن يكون للسماوات عمد، ولكن نحن لا نرى.

الاحتمال الثاني: أن تكون السماوات بغير عمد كما نرى.

واستظهرت البحث السابق الاحتمال الأول، وظاهر العبارة أنها ناظرة إلى الاحتمال الأول، هذه الرواية تكون مؤيدة لما استظهرناه؛ لأن الراوي في تعجبه وفي الشبهة التي وردت إلى ذهنه بنى على الاحتمال الثاني، أن هذه السماوات ترونها بلا عمد، فقال الإمام عليه السلام: سبحان الله، إذا قال بغير عمد ترونها، يعني ثم عمد، ولكن أنتم لا ترونه. فتكون هذه الرواية مؤيدة لما استظهرته من الآية.

طبعاً، لا يشكل علينا أن الآية التي احتج بها الراوي هي الآية الواردة في سورة الرعد، ونحن الآن في سورة لقمان؛ لأن التعبير هو في الواقع بينهما واحد ومتقارب.

الآية الحادية عشر: ﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾[5] في هذه الآية يوجد جملة من الاستفادات:

الاستفادة الأولى: أن مجيئها في سياق الآية السابقة الذي عرفت أنها تشتمل على أربع آيات من خلق الله تبارك وتعالى وتدبيره، فيكون وقوع هذه الآية في المقام مع الآية السابقة في غاية الانسجام، وأشبه ما يكون ما يسمى بعلم البديع بالإرصاد أو الرصد، وهو أن يقول المتكلم شعراً أو نثراً ويستنتج المخاطب والسامع المقطع الذي يأتي بعده، ما تلاحظ أنت في بعض القصائد لشدة الانسجام قبل أن يقول القافية ترى الحضّار هم يرددونها، هذا يسمى في علم البديع بالرصد أو الإرصاد، وهذه واحدة من الأسباب التي أدت إلى ارتداد بعض العرب بعد إسلامهم، النبي الأعظم صلى الله عليه وآله تكلم بآيات فقبل أن يكمل قال أحد الحضّار: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: هكذا نزلت. فظن أنه إذا أنا أؤلف قرآن فإذن أنا أولى بالنبوة، وخفي عليه أن هذا لشدة الانسجام بين هذه الآية وبين ما قبلها من الآيات.

كذلك فيما نحن فيه بعد أن بين في مقام الرد على أولئك الذين أنكروا الدين، ويشترون لهو الحديث ليضلوا به عن سبيل الله، بعد أن بين عظمة آيات الله وتدبير في خلقه، هذا يقتضي أن يقال لهؤلاء:

---

[5] لقمان 11

﴿هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ﴾ فإذن الاستفادة الأولى من هذه الآية أنها وقعت في موقع منسجم مع ما قبلها.

الاستفادة الثانية: أن هذه الآية المباركة تفيد التوحيد في الخالقية والربوبية، حيث إنه تبارك وتعالى بعد أن أراهم خلقه وتدبيره في الآية السابقة، وكلفهم في هذه الآية أن يبرزوا شيئاً من خلق آلهتهم، إذن عندنا نحن نؤمن بإله ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الأرض رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ هذا هو خلق الله، آلهتكم ماذا فعلت؟ هذا الاستفهام الإنكاري والإبطالي يدل على أنهم لا يستطيعون أن يبرزوا شيئاً، فخالقنا وإلهنا خالق ومدبر، وسائر الآلهة المدعاة ليست كذلك، النفي والاستثناء هو قوله: "لا إله إلا الله" فتدل الآية إذن التوحيد في الخالقية والتوحيد في الربوبية والتدبير.

الاستفادة الثالثة: أن هذا التعبير بالآية الكريمة يحمل في طياته لحن التحدي، وإن شئت فقل هو نظير قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[6] كيف تلك الآية في مقام التحدي، يعني لا تستطيعون، وفي مقام بيان إعجاز القرآن، هذه الآية المباركة لحنها وسوقها وصياغتها هي لحن وسوق وصياغة التحدي.

الاستفادة الرابعة: طبعاً، في هذا السؤال كما أشرت قبل قليل لا يتوقع من هؤلاء الجواب، هذا ليس من الأسئلة ومن الطلب الذي يراد معه الجواب، بعد أن عرفنا أنه في مقام التحدي، فإن الظالمين، والمقصود من ظلم هنا هو ظلم الشرك والعبودية لغير الله تبارك وتعالى، يتيهون في ضلال مبين، وأي ضلال وأي ظلم بعد الشرك! وبعد هذا الضلال! بعد أن استعرضت الآيات هذا المظهر الكوني الباهر، سماوات مرتفعة بلا عمد ترونها، بعد أن استعرضت الآية السابقة صفحة الخلق والتدبير في هذا الكون، حينئذ يكون ذلك برهاناً على وحدانية الخالق والمدبر، وعلى وضوح ذلك، فإذن لا نتوقع من هؤلاء أن يجيبوا على هذا الطلب، على قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ﴾ لا توقع في الجواب من هؤلاء، فهذا الكون بصفحة آياته الواضحة الباهرة يكون إنكار انتسابه إلى خالق عظيم وإلى مدبر حكيم كإنكار الإنسان لوجود نفسه، إذا كنت تؤمن بوجودك فلا بد لك من موجد، إلا أن

---

[6] البقرة 23

تنكر الوجود، تقول أنا لست بموجود، فكذلك من يتأمل في صفحة هذا الكون، في آياته الباهرة، في آياته العظيمة، لا يمكن أن ينكر وجود الخالق والمدبر له، فأن هذا من الواضحات إلا إذا كابر وأنكر وجود أصل هذا الكون، فلأجل ذلك تقول الآية: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ مرة في ضلال؛ لطرو شبهة، هذا لا يقال له ضلال مبين، أما هذا الضلال عند المشركين، عند من يعبد غير الله سبحانه مما صنعته أيديهم، هو ضلال متصف بالوضوح وبالإبانة وبوضوح الرؤية فيه، فهو ضلال مبين، خروج عن جادة الصواب الواضحة المبينة، هذه الاستفادة الأخيرة التي يمكن أن تستفاد من هذه الآية المباركة.

إلى هنا، وهذه الصفحة الأولى من سورة لقمان التي اشتملت على أحد عشر آية، هذه الصفحة كما لاحظنا في تفسير آياتها ما زالت إلى الآن مترابطة، يعني على طريقة ما يسمى بالتفسير المقطعي هذه الصفحة كلها بينها ترابط وانسجام، بيّن لنا بعد أن أشار إلى آيات الكتاب الحكيم والغرض والفائدة منها، بيّن لنا فئتين من الناس، فئة من أهل الإحسان، وفئة ليسوا كذلك، وذكر أوصافهم وأعمالهم ومآلهم ثم رد عليهم ببرهان النظر إلى آيات الله تبارك وتعالى. هذا خلاصة ما ذكرناه في هذه الصفحة.

ليدخل بعد ذلك في الآية الثانية عشر في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[7] هذا في الواقع مقطع جديد في هذه السورة المباركة.

لكن لا ينبغي أن نغفل أنه على منهج التفسير المقطعي أيضاً ينبغي أن يبين الترابط بين المقاطع، يعني وضع المقاطع في السور هكذا ليس عشوائياً، وإنما ينشأ عن وجود ترابط بين المقاطع.

[7] لقمان 12